

بيان مكانة علماء الشريعة في الإســلام

د. مُحَمَّد بن سَرَّار آل اليامي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد:

فقد نبتتْ نابتة تزري بأثر علماء الشريعة الذين هم على جادة السلف في المجتمعات، وتعيد ما كدنا ننساه من أقوالهم، بأنهم ليسوا سوى أوعية لمسائل الطهارة ونحوها، ولذا رأيت لزامًا عليّ رشم شيء من أثرهم، وبيان شيء من دورهم وفضلهم، وبالله توفيقي.

إنّ توقير العلماء وتقديرهم واحترامهم من السنة، بل إجلال العالِم لعلمه، ولما يحفظه من القرآن إجلالٌ لله عز وجل، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ: «إنّ من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[1].

ولقد كان من تمام احترام السلف لعلمائهم أنهم كانوا يهابونهم:

- عن ابن عباس ﷺ قال: «مكثتُ سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن حديثٍ ما منعني منه إلا هيبته»[2].

- قال علي بن أبي طالب ﷺ: «إنّ مِن حق العالِم ألا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، وألا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشينّ له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، وإنْ زلّ قبلتَ معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإنْ كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته».

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وقد حسّنه الذهبي والنووي والحافظان ابن حجر والعراقي، يُنظر: الأرناؤوط، هامش شرح السنة للبغوي (٤٢/١٢).
(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٢/١).

أولًا

الأثـر الثقافي على الفـرد

والأثر الثقافي يقع تحت إطار المجالات الثلاثة التالية:

أولًا الأثـر الفكري:

ويظهر الأثر الفكري لمكانة العلماء على الفرد من خلال أمور:

أولها: ملء الفراغ الفكري للفرد، ويُقصد بالفراغ الفكري خلو العقل والفكر مما ينفع ويفيد، وليس شرطاً أن يكون الفارغ فكرياً ممتلئاً بما لا يفيد ولكنه خال مما يفيد، مما يجعل صاحبه مؤهلاً للتأثر بأي فكر وأي منهج بغض النظر عن محتواه العلمي ودرجة صحته؛ ولأن امتلاء العقل والفكر بالعلم والمعرفة يكون رصيداً قوياً ضد الانحراف ومانعاً صلباً من الضلال.

ويظهر للفراغ الفكري عدد كبير من المظاهر والسلوكيات والآثار التي ينعكس تأثيرها على الفرد والمجتمع والدولة، فيظهر دور عالم الشريعة من خلال تولي زمام المبادرة لسدِّ الثغرة، وإحلال العلم النافع مكان العلم الضار.

وثانيها: التصدي لمحاولات زعزعة ثقة الأمة بأولياء أمورها: لاسيما ممن يسيطرون على بعض وسائل الإعلام الموجهة، فإن الحرب الشرسة التي يقودها هؤلاء لمحاولة التهوين من شأنهم والحط من قدرهم، لا بد وأن تواجه وأن تقاوم بما يتناسب مع هذه الحملات والتشويه، فيكون أثر العلماء هو تقديم المنهج الصحيح المتكامل الذي يؤصل للعلاقة المتينة التي تربط بين الفرد وولي الأمر؛ وفق التصور الإسلامي الصحيح الذي يستمد أحكامه ونظامه من نصوص الشريعة الإسلامية.

وثالثها: التصدي لمحاولات النيل من الثوابت، ولاشك أن الفرد في أي زمان ومكان مرتبط بثوابته وتراثه وثقافته ارتباطاً وثيقاً، ويتخذ منه منهجاً وطريقاً لحاضره ومستقبله، وقد نجد بعض المتربصين ممن يشككون في ثوابت الأمة العظيمة التي لا تتبدل ولا تتغير، فيظهر أثر العلماء في تكوين حائط صد منيع ضد محاولات التشوية والتأثير على فكر الأفراد الذين نشئوا وتربوا في بيئة صالحة؛ تُعظم النصوص الشرعية، وتُجل الثوابت العظيمة التي لا تقبل التشكيك أو التحريف.

ورابعاً: تحصين العقل ضد التطرف والانحراف، خاصة في عصر تتعاظم فيه كل يوم استخدامات التكنولوجيا في حرب الشائعات، بل واختراق سرية المعلومات وما شابه ذلك.

ومن هنا نشأ دور العالم بالغ التأثير في تحصين العقول من مغبة الوقوع في براثن ومستنقعات الجماعات التكفيرية والإرهابية، والتي قد تكلف الدول التي تحارب الإرهاب، ثمنًا كبيراً، ما لم تنتبه إلى هذه الضرورة والتي تتطلب تحرك المجتمع بأسره من أجل التصدي للمؤامرات التي تلوح في الأفق، والتي تستهدف بالمقام الأول، تحطيم معنويات الشعوب واستدراج الشباب نحو اللامسئولية ومن ثم الفوضى.

ثانيًا الأثـر القيمـي:

ويظهر الأثر القيمي لمكانة العلماء على الفرد من خلال أمور:

أولًا: تقريب الصلة بين الفرد وربه، يقول سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء"[١].

فالعلماء يقومون بهداية الناس إلى الدين الحق؛ لأن المقصد من الدعوة أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، ويكون تعبيد الناس لرب العالمين هو الثمرة المرجوة من دعوة العلماء وأثرهم على أفراد المجتمع.

ثانيًا: نشـر العلـم النـافع ورفـع ظلمـات الجهـل والفسـاد عـن كاهـل المجتمـع، قـال الشـيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "لولا العلم؛ لكان الناس كالبهائم في ظلمـات الجهالـة، ولـولا العلـم؛ لمـا عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم؛ ما عرفت البراهين على المطالب كلهـا ولا الـدلائل، العلـم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات، وهو المميز بـين الحقـائق، وهـو الهـادي لأكمل الطرائق، بالعلم يرفع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات"[٢].

ثالثًا: محاربة التواكل، فإن بعض الأفراد يفضلون التقاعس عن القيام بالأعمال ومتابعتها بحجة التوكل على الله أو على الآخرين في قضاء أعمالهم، ويرتبط هذا الأمر بصورة أو أخرى بالمسؤولية عندما يحاول كل فرد رمي المسؤولية على الآخرين، فيظهر أثر العلماء من خلال إبراز قيم التوكل، وحب العمل، والسعي على الرزق، وربط الناس برب العباد مع عدم إهمال الأسباب والأخذ بها.

رابعًا: محاربة إسراف الفرد في التمتع بالحياة: والتمتع بنعم الله جَلَّ وَعَزَّ أمر لا بأس به، ولكن المحظور هو الانغماس والإسراف في التمتع مع ترك الأولويات، من عبادات وطاعات وغيرها، فيظهر دور عالم الشريعة في ترتيب الأولويات لدى الأفراد، وحثهم على ضرورة العمل للآخرة دون إهمال حظوظ النفس المباحة التي أحلها الله جَلَّ وَعَزَّ لهم.

خامسًا: محاربة البطالة، ويُقصد بها هنا عدم الرغبة في العمل، وهذا أمر مذموم، فالإسلام لا يعذر في القعود عن العمل إلا القاصرين والعاجزين، فلا تقوم البطالة ولا تنسحب على الأطفال والشيوخ والعجزة؛ فقد رفع عنهم الحرج في هذا الباب، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

ومن هنا يبرز أثر العالم على الفرد من خلال تقدم التوجيه والنصيحة والإرشاد بشأن أهمية العمل في الإسلام، فيجب على الفرد أن ينظر إلى العمل على أنه قيمة إيجابية، يقول الرسول ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل مِن عمل يده»[٣].

سادسًا: محاربة الفساد، فقد يركن بعض الأفراد إلى الفساد، وأخص بالذكر هنا الفساد الإداري الذي يضر المنظومة القيمية للدولة والمجتمع، فقد يجنح بعض الأفراد إلى قبول الرشوة، والمحسوبية، والواسطة، وغير ذلك من السلوكيات القيمية المذمومة، فيظهر أثر عالم الشريعة من خلال تقويم أمثال هذه السلوكيات المنحرفة لدى بعض الأفراد، والعمل على استئصالها، وبيان أثرها السيء في المجتمع، وضررها البالغ في تقدم الوطن ورفعته.

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١٤٩).

(٢) الرياض الناضرة، (ص ٧١).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٠٧٢).

ثالثًا الأثر النظمــي:

ويظهر الأثر النظمي لمكانة العلماء على الفرد من خلال أمور:

أولاً: حث الأفراد على تحمل المسؤولية؛ فقد حث الإسلام أبنائه على تحمل المسؤولية، فالإسلام دين التحدي وتفجير الطاقات، إنه الدين الذي يجعل الإنسان يعيش ويحيا في سبيل الله، ويدفعه إلى أن ينصر الدين بماله ونفسه وجهده ووقته ودمه، وإن من القيم العظيمة التي أرساها الإسلام ودعا إليها وربى أتباعه عليها تحمل المسؤولية، خاطب بذلك الأفراد والمجتمع والأمة، وجعل القيام بهذه المسؤولية سبباً للفوز في الدنيا والآخرة، ومن آثار العلماء في هذا الشأن تربية الفرد المسلم على تحمل المسؤولية، ليس مسؤولية نفسه فحسب بل يمتد الأمر إلى تحمل مسؤولية أهله ومجتمعه بحسب قدرته واستطاعته.

ثانيًا: بث روح الإيجابية وعلو الهمة: حث الإسلام الأفراد على الإيجابية والتحلي بروح المثابرة وعلو الهمة، وعدم الرضى بسفاسف الأمور وخسيسها، ويظهر أثر العلماء في هذا الشأن من خلال حث الأفراد على مجاهدة النفس ومحاسبتها، وأيضًا من خلال حث الأفراد على أهمية استشعار الأجر والثواب في كل عمل، وكذا محادثة النفس دائمًا بأهمية الطموح وعلو الهمة، وأيضًا بث روح الطموح وتحدي المهام الصعبة وإنجازها، وكذا تعليم الأفراد معاني الجدية وعدم الانشغال بتوافه الأمور، والاستغناء -إن احتاج الأمر- عن بعض الكماليات في حياتهم.

ثالثًا: أن يكون الفرد عضوًا فاعلاً في المجتمع: إن دين الإسلام هو دين الإحسان إلى الناس، وهو الدين الذي يسعى بشكل عملي إلى مساعدة الناس وقضاء حوائجهم، يقول رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كُرَب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٤].

قال الإمام النووي: "وهو حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، وغير ذلك"[٥].

وقد رغب النبي ﷺ في السعي في حاجات الناس؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٦].

ولعلماء الشريعة الأثر البالغ على الفرد في هذا الشأن من خلال الحث على معاني التكافل المجتمعي، وتقديم يد العون والمساعدة للفقراء والمساكين والمحتاجين.

---

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢١).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٢)، ومسلم برقم (٢٥٨٠).

ثانيًا

الأثـر الثقافي على المجتمـع

والأثـر الثقافي يقع تحت إطار المجالات الثلاثـة التاليـة:

أولًا الأثـر الفكـري:

ويظهر الأثر الفكري لمكانة العلماء على المجتمع من خلال أمور:

أولاً: الإيمان بوحدانية الله؛ فمن أثر العلماء على المجتتمع، جمع كلمتهم على عبادة الله الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيءٌ؛ فالتوحيد ينقل شخصيات المجتمع من التشتت والضياع إلى عالم تظهر فيه معالم الشخصية المسلمة الموحدة، المؤمنة بالله جَلَّ وَعَزَّ وبقضائه وقدره.

ثانيًا: الاعتصام بالكتاب والسنة في مواجهة الفتن، وذلك أن من اعتصم بالكتاب والسنة اعتصم بعظيم، وتمسك بحبل الله المتين، فيحصل له من الأمن والطمأنينة ما يجعله يعيش في سعادة وهناء، والفتنة هي ابتلاء من الله . للمجتمع، ليعلم الله جَلَّ وَعَزَّ الصادق من الكاذب، فقد قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وإن من الأثر البليغ لعلماء الشريعة على المجتمع هو ربط الناس بالكتاب والسنة، وحثهم على الاعتصام بهما، فعن عبد الله بن مسعود قال: خَطّ لنا رسول الله ﷺ خَطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سُبُل علي كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[(٧)].

ثالثًا: القضاء على مظاهر الغلو والتطرف في المجتمع، وذلك من خلال البحث في جذور المشكلة وأسبابها، ثم علاج المشكلة من خلال حث المجتمع على عدم التعصب للرأي والنفس، والابتعاد عن التمحور حول الشخصيات والأحزاب والجماعات، ونبذ التقليد الأعمى، وعدم التجرؤ على الفتوى، ومحاربة الجلافة والغلظة وافتعال الخصومات التي تثير الفرقة والخلاف بين أفراد المجتمع.

رابعًا: التفاف المجتمع حول قياداته، وخاصة علماء الشريعة، ويأتي هذا من خلال الالتصاق بالجماهير، ومعالجة قضايا المجتمع الملحة، والنظر فيما له أثره وانعكاساته على حاضر الناس ومستقبلهم.

---

(٧) أخرجه أحمد برقم (٤١٤٢)، وحسن إسناده الأرناؤوط في تحقيق المسند.

ثانيًا الأثر القيمـي:

ويظهر الأثر القيمي لمكانة العلماء على الفرد من خلال أمور:

أولاً: الصدق: والصدق قيمة عظيمة من قيم الإسلام، ويجب أن يكون صفة ملازمة للمسلم في كل جوانب حياته وهي أساس علاقة الناس مع بعضهم البعض، فالصادق يحبه الناس ويتعاملون معه ويثقون به ويأتمنون له، ومن أثر علماء الشريعة في هذا الجانب، تفعيل قيمة الصدق في المجتمع، الصدق في الأقوال، والصدق في الأفعال، والصدق في المعاملات؛ فينشأ المجتمع الصادق الذي يؤدي دوره في الحياة بصدق والتزام.

ثانيًا: الإيثار، والإيثار "فضيلة للنّفس بها يكفّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصّه حتى يبذله لمن يستحقّه"[٨]، وقد حث الإسلام على الإيثار في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]. يقول ابن كثير: "أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالنّاس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك"[٩].

ويبرز أثر العلماء في هذا الشأن من خلال: نشر حسن التعاون والتكافل، وتوثيق الأخوة والمحبة بين الناس، والعمل على نزع العداوة والحقد بين أفراد المجتمع.

ثالثًا: تفعيل قيم التكافل الاجتماعي، وفيه يكمل أبناء المجتمع بعضهم في شتى جوانب الحياة، ممّا يقلل ويقلص من منابع الفقر والعوز في المجتمع.

رابعًا: تعزيز قيم الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع، ويظهر أثر العلماء في هذا الشأن من خلال إبراز قيم الإسلام التي تناولت هذا الشأن، مثل: حسن الخلق، احترام الآخرين، إفشاء السلام.. إلخ تلك القيم والمبادئ السامية.

---

(٨) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه (ص: ٣١).

(٩) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٠).

ثالثًا الأثر النظمـي:

ويظهر الأثر النظمي لمكانة العلماء على الفرد من خلال أمور:

أولاً: إتقان العمل، وقد حث النبي ﷺ بقوله: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»، وإتقان العمل هو نجاح ورقي للفرد والمجتمع بشكل عام، ويأثر أثر العلماء في هذا الجانب من خلال تفعيل معاني حب العمل وغرس ذلك في نفوس المجتمع، وحث المجتمع كذلك على مراقبة الله جَلَّ وَعَزَّ في العمل واستشعار عظمة رؤية الله جَلَّ وَعَزَّ لأعمال العباد، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥].

ثانيًا: اجتماع الكلمة واجتناب التفرق، وتفعيل التعاون والتعاضد بين أفراد المجتمع، ويعدّ التعاون من أهم مقوّمات وركائز التواصل البشري، ولا غنى عنه لفرد من الأفراد أو مجتمع من المجتمعات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، ويظهر أثر العلماء في هذا الشأن من خلال حث المجتمع على التعاون والتعاضد، وتفعيل قيم التواصل الإيجابي البناء بين أفراده.

ثالثًا: تحمل المسؤولية الاجتماعية: وتُعرف المسؤولية الاجتماعية بأنها: "استعدادٌ مكتسب لدى الفرد يدفعه للمشاركة مع الآخرين في أيّ عملٍ يقومون به، والمساهمة في حل المشكلات التي يتعرضون لها، أو تقبّل الدور الذي أقرته الجماعة له والعمل على المشاركة في تنفيذه"[١٠].

والمسؤولية الاجتماعية ثقافة أصيلة في الإسلام، وحث عليها النبي ﷺ بقوله: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

والمسؤولية في الإسلام، تعني أن المسلم المكلف مسؤول عن كل شيء جعل الشرع له سلطانًا عليه أو قدرة على التصرف فيه بأي وجه من الوجوه، سواء كانت مسؤولية شخصية فردية أم مسؤولية متعددة جماعية.

ومن أثر العلماء في هذا الشأن: النهوض بواقع المسؤولية الاجتماعية في المجتمع، وطرح الوسائل والسبل التي من شأنها إعادة مفهومها إلى الواقع التطبيقي.



(١٠) المسؤولية الاجتماعية لدى طلاب شعبة التاريخ بكلية التربية، إمام مختار حميدة، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، المجلد الأول، العدد الرابع، (ص٢١).